موقف الفقهاء من نظرية وحدة الأديان لدى الصوفية

بين ابن عربي وابن تيمية:
موقفان مع الحوار الديني وضدّه

أ- رفيقة بوجدّي*

المقدمـــة

لا احد يستطيع اليوم أن ينكر الأزمة التي يمر بها الشرق العربي الإسلامي في علاقته بالغرب عموما. وكان من نتائج هذه الأزمة أن اكتست مسالة الحوار الثقافي بين مختلف شعوب العالم أهمية بالغة، لأن تكريس حوار متكافئ وعقلاني، يبدو للكثيرين، الحل الوحيد الذي يمكنه الخروج بالعلاقة من وضع الأزمة، وتجنيب الإنسان حيثما كان، مزيدا من النزاعات.

وقد سبقت أن استأثرت هذه القضية باهتمام كبير في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين في إطار الجدل الكبير الذي عرفه الفكر العربي الحديث ضمن طرحه لمسالة النهضة العربية، ومدى ارتباطها بالنموذج الحداثي الغربي. إلا أن القضية تكتسي اليوم، في ظل التطورات الراهنة التي وسمت علاقة الشرق بالغرب، أبعادا جديدة، حتى أنّه يمكن القول إن مسالة العلاقة بالآخر أصبحت في مقدمة القضايا الفكرية والحضارية المطروحة على الفكر العربي المعاصر.

ونحن عندما نعود إلى تراثنا، نتبين أن مسالة الحوار الثقافي بين العرب والمسلمين وغيرهم من الأمم والشعوب، ليست من المسائل الحادثة. فقد مرّ الفكر العربي الإسلامي بفترات أساسية في تاريخه، كرّس فيه هذا الحوار الثقافي والحضاري، ومارسه دون أي مركبات أو تعقيدات، وهو ما نلمس ثمراته ضمن حركة الترجمة التي ازدهرت بشكل خاص فيما يعرف اليوم بالعصر الذهبي للحضارة العربية الإسلامية، كما نراه أيضا في التنظيمات والقوانين التي سنّها المشرّع الإسلامي لتنظيم العلاقة مع أهل الذمّة،[1] في سبيل تحقيق تعايش اجتماعي

*- أستاذة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجندوبة (تونس).

[1]- نسبة لعقد الذمة التي يصير بمقتضاه غير المسلم في ذمة المسلمين إي في عهدهم وأمانهم بشرط بذل الجزية والتزام أحكام الملة. وهذه الذمة لا يسمح بها إلا لأهل الكتاب والصابئة ثم الجوس، لكن الدول الإسلامية وجدت نفس المصدر ا مضطرة إلى التسامح مع غير هؤلاء كالدهرية والمشركين. للتوسع حول أهل الذمة وعقد الذمة وأركانه وتطبيقاته، انظر، دائرة المعارف الإسلامية، ط 2، EI2, Dhimma, par C.Cahen, t. II, p 234-238. عبد الكريم زيدان، أحكام الذميين والمستأمنين في دار الإسلام، ط 2، مكتبة القدس ببغداد ومؤسسة الرسالة، بيروت، 1982.

وسياسي واقتصادي يحمي حقوق كل أطراف المجتمع، مهما كانت انتماءاتهم الدينية والعرقية.[1]

وقد اخترت اليوم مجال التصوف الإسلامي لبحث مسألة الحوار الديني بين المسلمين وغيرهم. ولا يخفي أن الحوار الديني هو وجه من وجوه الحوار الثقافي بين الشعوب، بل لا نبالغ إذا اعتبرناه أكثر هذه الوجوه أهمية وحساسية، بسبب العلاقة الوجدانية والانفعالية التي عادة ما تربط الشعوب بدياناتها، فتجعل الأفراد عن وعي أو عن غير وعي، يتعصبون لهذا الانتماء المقدس، ويكفرون كل من خالفه.

ومثلما تتباين اليوم المواقف من مسألة العلاقة بالآخر بين مؤيد للحوار الثقافي والدّيني، وداع إلى رفضه، فإننا نلاحظ أن مواقف السلف عرفت كذلك هذا التباين، وهو ما سنحاول إبرازه من خلال مذهب المتصوفة في وحدة الأديان كما عبر عنه ابن عربي، والذي قابله الفقهاء، وعلى رأسهم ابن تيمية، برفض شديد بلغ حدّ التكفير. فموضوعنا مندرج إذن ضمن النقد الذي وجهه الفقهاء للصوفية، بسبب بعض أرائهم التي بدت مخالفة لتعاليم التديّن السني كما ضبطها علماء الشريعة منذ عهد مبكر.[2] وسيمكننا هذا الخلاف بين الصوفية والفقهاء حول نظرية وحدة الأديان

---

[1]- إذا نظرنا في ما تنقله المصادر عن سياسة الخلفاء بإزاء أهل الذمة، فإننا نستنتج أنه، باستثناء الخليفة العباسي المتوكل (فيما بين 232-247هـ) والذي ضيق على الذميين ماديا ومعنويا، غلب على موقف الخلفاء التسامح مع غير المسلمين حتى أنهم لم يترددوا في استعمالهم في شؤون الدولة. أما إذا تجاوزنا سياسة الحكام، فإننا نلاحظ أن العلاقات الاجتماعية بين الفريقين كان يغلب عليها الوفاق والتسامح، "فكانت عناصر المجتمع المختلفة في القرن التاسع (الثالث للهجرة) تعمل جنبا إلى جنب... ولم يكن سعي كل فريق لإنهاض شعبه ودينه مانعا من تلقي دروس الحضارة بعضهم من بعض، فكان للنصراني طلبة من المسلمين والمجوس كما كان عكس هذا". بارتولد، تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، ط 5، دار المعارف، القاهرة، 1983، ص 55-56.

[2]- مرت العلاقة بين الفقهاء والصوفية بفترات متأرجحة بين القبول والرفض. فإلى حدود القرن الثالث، لم يكن من الممكن اعتبار التصوّف والمذهب السني اتجاهين مختلفين أو متعارضين، لأن الزهاد والصوفية الأوائل كانوا على حد تعبير القشيري "من خواص أهل السنة"، كما كان بعضهم يجمع بين الفقه والتصوّف، شأن الحسن البصري (ت110هـ) وسفيان الثوري (ت161هـ) وأبي القاسم الجنيد (ت298هـ). ولكن ابتداء من القرن الثالث ظهرت بوادر الفرقة بين الفريقين، فوقع القبض على عدد من شيوخ الصوفية، وتم عرضهم على القضاء ليبت في أمرهم، لتبلغ هذه الأزمة ذروتها في بداية القرن الرابع مع صلب الحلاج (309هـ)، بعد أن أفتى الفقهاء بتكفيره وإباحة دمه. فكانت هذه الحادثة إعلانا عن القطيعة الكلية بين الصوفية وممثلي الشريعة. ورغم أن الغزالي (ت505هـ) نجح بعد قرن من تاريخ هذه الأزمة في التوفيق بين التصوف والإسلام السنّي،إلا أن هذه المصالحة لم تستمر طويلا، بسبب "الانحرافات" التي عرفها التصوف الإسلامي في القرن السادس والسابع، على المستوى النظري (بدا هذا الانحراف ضمن آراء الإشراقيين وعلى رأسهم السهروردي المقتول (587هـ) ثم خاصة ضمن آراء ابن عربي (638هـ) مؤسس نظرية وحدة الوجود التي أثرت في جل التجارب الصوفية اللاحقة، رغم تناقضها الصارخ مع تعاليم الشريعة السنية، ومخالفتها لمبدأ التوحيد الإسلامي)، وعلى المستوى السلوكي (حيث بدا تجاوز السنة واضحا ضمن تعاليم التصوف الطرقي الذي ينبني على ملازمة الأربطة والزوايا، وإلزام النفس والجسد بنوع من الرياضات والمجاهدات، وتقديس الأولياء واعتبارهم وسطاء بين العبد وربّه). ورغم الانحرافات الخطيرة الطارئة على المذهب، عرف التصوّف في هذه الفترة انتشارا لا نظير له، إذ شمل كل فئات المجتمع بعد أن كان في القرون الأولى مذهبا مقصورا على الخاصة من العلماء، حتى "كاد التصوّف يستأثر بالسلطة الروحية في المجتمع، ويغدو منافسا خطيرا لعلماء السنة ولسلطانهم الديني". وكرد فعل على هذا المدّ الصوفي "المنحرف" عقيدة وممارسة، تحرك فقهاء السنة لمواجهة الصوفية، لاسيما القائلين منهم بالوحدة الوجودية، ومشايخ الطرق المبتدعة.وكان فقهاء المذهب الحنبلي السلفي في مقدمة

تحديدا، من تنبيّن موقفين مختلفين من مسألة الحوار الثقافي. الأول: موقف صوفي منفتح، يستوعب كل الديانات ولا يؤمن بانغلاق دائرة التأويل، يقابله موقف فقهي حنبلي، يتمسك بحرفية النص الإسلامي، ويغلق السبيل أمام كل إمكانيات الانفتاح على الشرائع الأخرى، ما لم يرد في ذلك نص صريح. وسنحاول من خلال عرض هذين الموقفين الإجابة عن الأسئلة التالية:

- ما هو مفهوم وحدة الأديان كما عبر عنه ابن عربي؟
- ما علاقة هذا المذهب بمسالة الحوار الثقافي التي نطرحها؟
- لماذا أنكر ابن تيمية هذا المذهب وكفر القائلين به، وما هي دعائم موقفه؟
- وأخيرا. هل يمكن، وكيف يمكن أن نوفق بين النص الديني من جهة، وبين مقتضيات الواقع الجديد التي تدعونا اليوم أكثر من أي وقت مضى، إلى تأسيس حوار متكافئ وعقلاني مع الآخر، بغض النظر عن انتمائه الدّيني؟

II- نظرية وحدة الأديان والانفتاح على الآخر

الحلاج ونشأة فكرة وحدة الأديان

كان للحسين بن منصور الحلاج (ت 309هـ)، دور حاسم في توجيه التصوف الإسلامي بعده،[1] حتى أننا لا نبالغ إذا قلنا إن أغلب الآراء التي قام عليها التصوف الوحدوي مع ابن عربي وأتباعه، تجد أصولها في تصوّف الحلاج، وهو ما يفسّر، إلى جانب نهايته المأساوية، الاهتمام البالغ الذي حظي به هذا الصوفي مقارنة بكل معاصريه من أصحاب المشاهدات، ومن بين هذه الآراء القول بوحدة الأديان. يندرج كلام الحلاج في وحدة الأديان ضمن مذهبه في الحب الإلهي، وهو عنده الوجه الحقيقي الذي يجب أن يسم علاقة العبد بخالقه، قصد بلوغ أرقى درجات القرب من الذات الإلهية، ولما لا الاتحاد بالحق بعد الفناء عن كل ما سواه.

ورغم أن الحلاج يقر بتعدد الأديان واختلافها الظاهر فأنّه يرى أن جميع العابدين يعبرون عن نفس الحقيقة، وهي حبهم للذات الإلهية، وينشدون نفس الهدف، وهو التحقق بالقرب منها.

وبما أن الأديان تصبح وجهات نظر أو مظاهر لحقيقة واحدة، فإن ما يظهر من اختلافها وتنوع أشكالها التعبديّة، لا يعدو أن يكون اختلافا في الأسماء والألقاب والعبادات، بينما باطنها واحد لا يختلف. يقول:

المعارضين لهؤلاء، وأبرزهم عبد الرحمان بن الجوزي (ت597هـ)، ثم خاصة شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن تيمية (ت728هـ)، ومن بعده تلميذه ابن قيم الجوزية (ت751هـ) للتوسع حول مختلف المراحل التي مرت بها العلاقة بين فقهاء السنة والصوفية، انظر خاصة مقال الأستاذ توفيق بن عامر، مواقف الفقهاء من الصوفية في الفكر الإسلامي، حوليات الجامعة التونسية: عدد 39، 1995، ص 7-63.

[1]- طه عبد الباقي سرور، الحلاج شهيد التصوف الإسلامي، ص 216، عن نيكلسون، "التصوف الإسلامي وتاريخه"، يقول عن الحلاج: "وقف في مفترق الطرق بين عصرين من أهم عصور التصوف، كان للعصر الأول أثر في تكوين مذهبه، كما كان لمذهبه اثر في توجيه التصوف في العصر الثاني".

تفكرت في الأديان جدّ محقق
فألفيتها أصلا له شعبا جمّا

وبذلك يصبح جميع العابدين ضمن مذهب الحلاج الصوفي محقين فيما اعتقدوه. ولا ينبغي للعارف أن يكفر كل من خالفه في الدين، مثلما يفعل أصحاب الشرع الذين يقفون عند حدود الأحكام الظاهرة، بل عليه أن يتخطى هذا الاختلاف الظاهر فيقبل كل الدّيانات والمعتقدات مادامت تعبر جميعها عن مدى محبة العابد لمعبوده، وهو جوهر عقيدة وحدة الأديان، التي تنفي الفروق بين الإسلام والمسيحية واليهودية وسائر الأديان. فهذا الحلاج يعلن بلا مواربة رغبته في الموت على دين المسيح، مفضلا إياه على الإسلام، يقول:

ألا أبلغ أحبائي بأنّـــــي
ركبت البحر وانكسر السفينة
على دين الصليب يكون موتي
ولا البطحاء أريد ولا المدينة

وقد نجم عن هذا الرأي تصور مخصوص لمفهوم العبادة، ينكر الطقوس الحسية ويعتبرها حائلا دون بلوغ الكمال "في الهوى"، لأن الاهتمام بالعبادة شغل عن المعبود. فالعارف غير ملزم بما ألزم به الشرع سائر المسلمين من العبادات الظاهرة، لأنه أصبح يدين بدين الحب. يقول:

إذا بلغ الصبّ الكمال من الهوى
وغاب عن المذكور في سطوة الذكر
فيشهد صدقا حيث أشهده الهوى
بأنّ صـــلاة العاشقيـــن من الكفـــر[1]

والحلاج مدرك تماما أن مذهبه هذا مخالف لما تنص عليه الشريعة الإسلامية، ويقر بأنّه اتخذ لنفسه دينا مخالفا لدين الناس، فهو يقول:

مالي وللناس كم يلحونني سفها
ديني لنفسي ودين الناس للناس

بل هو يصرح بأن دينه هذا في حكم الشريعة كفر، وبأن الكفر من منظور الشريعة هو الإيمان الحقيقي عنده. يقول:

كفرت بدين الله والكفر واجب
لديّ وعند المسلمين قبيح

فلذلك يجد أعذارا لكل من أنكر قوله واتهم إيمانه، بل هو لا يتردّد في حضهم على أنّ ينفذوا فيه حكم الشرع، ماداموا مأمورين بذلك. يخاطبهم بقوله : "أيها النّاس اعلموا أن الله تعالى أباح لكم دمي فاقتلوني... ليس في الدنيا للمسلمين شغل أهم من قتلي وتكونوا أنتم مجاهدين وأنا شهيد".[2]

[1]- ديوان الحلاج، ط. باريس، 1931، ص 56.
[2]- ماسينيون، أخبار الحلاج، باريس، 1936، ص 50.

والملاحظ أن مذهب وحدة الأديان رغم ظهوره مع الحلاج، لم يتطور إلى نظرية صوفية مكتملة الأركان، بل ظل مذهبا ذوقيا وجدانيا تعبر عنه مجموعة من الأقوال والأبيات الشعرية التي تنم عن مشاهدات وشطحات ناجمة عن وجد غلب على صاحبه، أكثر مما تنم عن تأملات عقلية فلسفية واعية ونسقية. وكان يجب أن ننتظر القرن السابع الهجري حتى تعود الفكرة إلى الظهور من جديد في شكل نظرية حقيقية مع فيلسوف الصوفية محي الدين بن عربي.

نظرية وحدة الأديان مع ابن عربي

أ- نظرية وحدة الوجود: أصل القول بوحدة الأديان

تعتبر عقيدة وحدة الأديان الصوفية، من الآراء المتولدة عن نظرية وحدة الوجود، التي وضع أسسها محي الدين بن عربي، واستمرت مع أتباعه، ليمتد أثرها إلى كل التيارات الصوفية اللاحقة.[1]

وتقوم نظرية وحدة الوجود عند متفلسفة الصوفية على اعتبار الوجود الحقيقي واحدا، غير متعدد، هو وجود الله. أما سائر المخلوقات فما "شمت رائحة الوجود" في الحقيقة. فإذا كان التوحيد الإسلامي قائما على الشهادة بأنه "لا إله إلا الله"، فإن كلام أهل الوحدة قائم على قولهم "لا موجود إلا الله" أو "ما في الوجود إلا الله". وهو ما يقتضي نفي التفرقة بين الله والخلق، والاعتقاد بأن العالم هو عين الحق، لا فرق بينهما من حيث الحقيقة،وهو ما يصرح به ابن عربي في أقوال كثيرة مشهورة ضمنها "الفتوحات" و"فصوص الحكم"، مثل قوله: "سبحان من خلق الأشياء وهو عينها"،[2] وقوله:

فما نظرت العين إلى غير وجهه
ولا سمعت الأذن خلاف كلامه

ولكن كيف يفسر ابن عربي وأتباعه كثرة الموجودات الظاهرة للعيان؟

يقول ابن عربي إن الكثرة الملاحظة في العالم هي وهم تحكم به العقول القاصرة. فالفرق الظاهر بين الوجودين (وجود الله ووجود الخالق) أمر يقضي به الحسّ الظاهر، إذ يتراءى الفرق للإنسان لأنه ينظر إلى الله بوجه وإلى المخلوقات بوجه آخر، ولو نظر إليهما من عين واحدة لزال الفرق، ولأدرك الوحدة الكامنة وراء الكثرة. فالوجود هو عين الله بلا تفرقة، وليس تعدد الموجودات إلا وليد

---

[1]- كان أثر ابن عربي فيمن جاء بعده من الصوفية هاما، حتى أصبح صاحب مدرسة في التصوف الإسلامي من أبرز أقطابها: ابن سبعين (ت حوالي 669هـ)، وصدر الدين القونوي (ت672هـ)، وعبد الكريم الجيلي (ت832هـ)، وعبد الرحمان جامي (ت898هـ)، وعبد الغني النابلسي (ت1143هـ)، وقد تواصل تأثير آراء الشيخ الأكبر في شيوخ الطرق الصوفية إلى وقت متأخر، إذ نرى اثره واضحا في تعاليم شيخ الطريقة التيجانية أحمد التيجاني (ت1230هـ) وتلاميذه، كما يعد عبد القادر الجزائري (ت1883م) ناشرا أراء ابن عربي في القرن التاسع عشر للميلاد.

[2]- الفتوحات المكية، ط. القاهرة، 329هـ ج2، ص 202.

الحواس الظاهرة، والعقل الإنساني القاصر هو الذي يعجز عن إدراك الوحدة الذاتية للأشياء. وبذلك تصبح التفرقة الاعتبارية أساس ثنائية "الله" و"العالم".[1] يقول:

فالحق خلق بهذا الوجه فاعتبروا
وليس خلقا بهذا الوجه فادكروا
من يدر ما قلت لم تخذل بصيرته
وليس يدريه إلا من له بصـــر
جمّع وفرّق فإن العيـــن واحـــدة
وهي الكثيرة لا تبقي ولا تـــذر

ومما يلزم عن هذه العقيدة قولهم إنّ المخلوقات جميعها (العالم وما يشتمل عليه من بشر وحيوان وجماد) ليست في الحقيقة إلا مظاهر متعددة تتجلى فيها الذات الإلهية الواحدة، وبالتالي فإنّ الحقيقة الوجودية واحدة في جوهرها وذاتها، متكثرة بأسمائها وصفاتها، إذا نظرت إليها من حيث ذاتها قلت هي الحق، وإذا نظرت إليها من حيث صفاتها قلت هي الخلق.[2]

ب- مذهب ابن عربي في وحدة الأديان: دعائمه ودلالاته

إذا كان الله، ضمن مذهب وحدة الوجود، الموجودَ الوحيد على الحقيقة، وإذا كانت كل المخلوقات مظاهر تجلت فيها الذات الإلهية القديمة مرورا من وجودها الباطن إلى وجودها الظاهر، فإنّ كل من عبد شيئا في هذا العالم لم يعبد في الحقيقة غير الله. وهذا هو جوهر نظرية وحدة الأديان كما شرحها الشيخ الأكبر، داعما رأيه ببعض الآيات القرآنية،التي يؤولها تأويلا خاصا، ينزاح بها عن التفسير المتداول خارج دوائر المتصوفة. ونحن نورد هنا بعض هذه الأدلة التي تكرر ذكرها في مصنفات ابن عربي.

فمنها قوله: *"وقضى ربّك ألا تعبدوا إلا إياه"*،[3] إذ يجعل فعل "قضى" هنا بمعنى "قدر"، أي أن الله قدر ألا يعبد غيره، "وما حكم الله بشيء إلا وقع" يقصد "وما قدّر الله شيئا إلا وقع".[4] فأي شيء عبده العابدون فهو الله الواحد ليس آخر غيره.

وكذلك يستدل بخبر موسى لما عاتب أخاه هارون لإنكاره على بني إسرائيل عبادة العجل، فقد كان موسى حسب ابن عربي "أعلم بالأمر من هارون، لأنه علم ما عبده أصحاب العجل، لعلمه بأنّ الله قضى ألا يعبدوا إلا إياه، وما حكم الله بشيء إلا وقع".[5] فهارون إذن أنكر على بني إسرائيل عبادة العجل، "لعدم اتساعه"، ولأنه لم يرتق إلى مرتبة موسى الذي كان من العارفين، "فإن العارف من يرى الحق في

1- أبو الوفاء التفتازاني، مدخل إلى التصوف الإسلامي، 1979، ص 202.

2- انظر، أبو العلا عفيفي، مقدمة كتاب فصوص الحكم.

3- القرآن، سورة الإسراء، الآية 23.

4- كلمة هارونية، وانظر ردّ ابن تيمية على هذا التأويل ضمن مجموع فتاوي، حقيقة مذهب الاتحاديين أو وحدة الوجود، ج 2، ص 263-264.

5- ابن تيمية: حقيقة مذهب الاتحاديين أو وحدة الوجود، ج 2، ص 252.

كل شيء بل يراه عين كل شيء".[1] واستنادا إلى هذه التأويلات وغيرها يجوّز ابن عربي للإنسان أن يدين بما يراه، إذ ليس ما يمنع أن يعبد أي مظهر تجلى فيه الله، سواء كان هذا المظهر وثنا أو حيوانا أو كوكبا أو بشرا، طالما هو يعبد الذات الباطنة المتخفية في المظهر المحسوس. لذلك فإنّ كل من اعتقد دينا، حسب هذا المذهب "مصيب، وكل مصيب مأجور"،[2] لأن من يعبد أي نوع من المخلوقات، إنما يعبده في الحقيقة باعتباره مجلى للذات الإلهية، بدا للعابد على قدر من الرفعة والتسامي، وفي ذلك يقول ابن عربي: "ولهذا ما بقي نوع من الأنواع إلا وعبد، وما عبد شيء من العالم إلا بعد التلبس بالرفعة عند العابد، والظهور بالدرجة في قلبه. ولذلك تسمى الحق لنا برفيع الدرجات ولم يقل رفيع الدرجة، فكثّـر الدرجات من عين واحدة، فإنه قضى ألا يعبدوا إلا إياه في درجات كثيرة مختلفة، أعطت كل درجة مجلى إلهيا عبد فيها".[3]

ويؤكد ابن عربي أن المشركين مدركون تماما أنهم لا يعبدون هذه الأجسام المحسوسة وإنما يجعلونها واسطة لعبادة الذات الإلهية المتعالية. فهم على سبيل المثال، لا يعبدون الصورة المتعينة في الصنم، "لعلمهم بأن تلك الصور حجارة"، بل يعبدون الله، الذي يتخيلون أنّه كامن فيه. وهو يجعل تسمية المشركين لمعبوداتهم المختلفة آلهة، انطلاقا من القرآن، إذ قالوا: "اجعل الآلهة إله واحدا؟ إن هذا لشيء عجاب"،[4] دليلا على أن الذي أشركوه هو عين الحق ليس غيره، أي أن هذه التسمية هي عنده دليل على ثبوت الألوهية للصور التي كان المشركون يعبدونها. يقول: "ولذلك سموه كلهم إلها مع اسمه الخاص، شجر أو حجر أو حيوان أو إنسان أو كوكب أو ملك، هذا اسم الشخصية فيه، والإلوهية مرتبة تخيّل العابد له، أنها مرتبة معبوده، وهي على الحقيقة مجلى الحق لبصر هذا العابد المعتكف على هذا المعبود في هذا المجلى المختص بحجر".[5]

فكأنّ العقل البشري عجز عن التجريد المطلق، الذي تقتضيه عبادة إله لا يراه ولا يسميه ولا يحيط به من أي وجه، فرسم له هذه الصورة المحسوسة القريبة من الإدراك، وجعلها مظهرا متعينا يرى فيه الذات الإلهية المجردة. وهي إلى ذلك واسطة تصل بين عالمي الألوهية والإنسانية، من خلالها يتقرب العابد من معبوده، لاستحالة الاتصال المباشر بينهما. والدليل قولهم: "وما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى".[6]

وبذلك يصبح كل معبود وجها من وجوه الحق، ولكل إنسان أن يؤدّي عباداته لأي إله يختاره، يراه مرّة في وثن وأخرى في حيوان أو بشر أو كوكب... وأرقى

---

[1]- حقيقة مذهب الاتحاديين أو وحدة الوجود، ج 2، ص 252.

[2]- ابن عربي، فصوص الحكم، ص 110.

[3]- حقيقة مذهب الاتحاديين أو وحدة الوجود، مجموع فتاوي، ج 2، ص 252، فص كلمة هارونية.

[4]- سورة ص، الآية 5.

[5]- حقيقة مذهب الاتحاديين أو وحدة الوجود، مجموع فتاوي، ج 2، ص 254، كلمة هارونية، وفص الكلمة النوحية.

[6]- سورة الزمر، الآية 3.

هذه الاعتقادات حسب ابن عربي، أن يراه في نفسه. يقول: " إن المعبود هو الجوهر الأزلي القديم المقوّم لجميع صور الوجود المفاضة بلا نهاية، أما العابد فهو الصور المتقوّمة بهذا الجوهر: فكل صورة من الصور ناطقة بإلوهية الحق، مسبحة بحمده، وكل معبود من المعبودات وجه من وجوهه، وأرقى أنواع العبادة هو التحقق بالوحدة الذاتية، بأنك أنت هو وهو أنت... فإنّه هو الذي يفيض عليك الوجود من وجوده".[1] هكذا يضل ابن عربي في كلامه عن وحدة الأديان، وفيا لتعاليم نظريته الكبرى في وحدة الوجود، بحيث يكون كل معبود وجها من وجوه الله، الموجود الوحيد في الحقيقة.

ولئن عرف الإنسان عبر تاريخه الطويل ديانات متعددة ومختلفة، فإن مصدر كل هذه الديانات واحد، والهدف منها واحد، وبالتالي الدين، مهما تباينت أشكاله واختلفت شعائره واحد. وهذا هو معنى وحدة الأديان الذي يسوي بمقتضاه ابن عربي بين مختلف الديانات، وثنية كانت أم سماوية، ويعتبرها صحيحة كلها ما دام مطلوبها واحدا. وهو يدعو بذلك إلى نوع من التدين الكلي والمطلق ، غير المقيد بشريعة من الشرائع، ويجعل عقيدته جامعة لكل ما اعتقده الخلق. يقول:

عقد الخلائق في الإله عقائدا
وأنا اعتقدت جميع ما اعتقدوه

وهو يقرّ أنه كان، شأن أهل الظاهر يدين كل من عبد غير الله الواحد. ولكنه أدرك بعد ارتقائه إلى مرتبة العارفين، أنه ليس في الوجود شيء يجعل إلها آخر، وإن أي شيء عبد فهو نفس الإله ليس آخر غيره، ولذلك صار قلبه هيكلا لجميع المعتقدات، ومرآة تنعكس عليها صور الوجود الحق. يقول:

لقد كنت قبل اليوم أنكر صاحبي
إن لم يكن ديني إلى دينه داني
لقد صار قلبي قابلا كل صورة
فمرعى لغزلان ودير لرهبـــان
وبيت لأوثان وكعبـــة طائـــف
وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنّى توجّهت
ركائبه، فالحب ديني وإيماني[2]

ولا يكتفي ابن عربي بالمجاهرة باعتناقه هذا الدين فحسب، بل يدعو إلى ذلك المحققين من أهل المعرفة إلى اتباعه "وإلا فاتهم خير كثير". يقول ضمن كتابه "فصوص الحكم": "إياك أن تتقيد بعقد مخصوص وتكفير ما سواه فيفوتك خير كثير بل يفوتك العلم بالأمر على ما هو عليه، فكن في نفسك هيولي لصور المعتقدات

[1]- يذكره سميح الزين، الصوفية في نظر الإسلام، ص 472.
[2]- ابن عربي، ديوان ترجمة الأشواق، بيروت، 1961، ص 44.

كلها، فإن الإله تبارك وتعالى أوسع وأعظم من أن يحصره عقد دون عقد، فإنه يقول: "فاينما تولوا فثم وجه الله".[1] [2]

ج- دين الحب عند ابن عربي:

ينتهي كلام ابن عربي في وحدة الأديان إلى قوله بمفهوم "دين الحب"، وهو عنده الدين الكلي المطلق الذي يشمل كل معتقدات الخلق ويؤلف بينها. وبذلك يصبح الدين عند ابن عربي ضربا من "الهوى" الذي يلوح في النفوس فتشرق له القلوب. يقول في أحد أشعاره:

شمس الهوى في النفوس لاحت
فأشرقت عندها القلوب
الحــــب أشهــى إليّ ممّــــا
يقوله العارف اللبيـــب[3]

وهذا المعنى الحقيقي لكل الديانات، ولولاه ما صحت العبادة، ولأضحى الدين مجرد طقوس شكلية فارغة من كل محتوى. يقول شارحا هذه الفكرة: "وأعظم مجلى عبد فيه الله وأعلاه: الهوى، كما قال: "أفرأيت من اتخذ إلهه هواه"،[4] فهو أعظم معبود، فإنه لا يعبد شيء ألا به ولا يعبد هو إلا بذاته. وفيه يقول:

وحق الهوى إن الهوى سببُ الهوى
ولو لا الهوى في القلب ما عُبد الهوى

وكذلك كل من عبد صورة من صور العالم، واتخذ إلها، ما اتخذها إلا بالهوى. فالعابد لا يزال تحت سلطان هواه. ثم رأى المعبودات تتنوع في العابدين، فكل عابد أمر ما، يكفر من يعبد سواه. ألا ترى علم الله بالأشياء ما أكمله! كيف تمم في حق من عبد هواه واتخذ إلها فقال: "وأضله الله على علم"،[5] والضلالة الحيرة. فالذي عنده أدنى تنبه يحار لاتحاد الهوى، بل لأحدية الهوى، فإنه عين واحدة في كل عابد، "فأضله الله"، أي حيره الله على علم بأن كل عابد ما عبد إلا هواه، ولا استعبده إلا هواه، سواء صادف الأمر المشروع أو لم يصادف، والعارف المكمل من رأي كل معبود مجلى للحق يعبد فيه".[6]

فهكذا فإن كل من عبد الله مهما اختلفت طقوس هذه العبادة وشعائرها، يعبر في الحقيقة عن حبه لمعبوده، فما من داع إذن إلى تحديد طرق التعبير عن المحبة ولا حصرها في شكل دون آخر.

ونحن نرى كيف يلتقي مذهب ابن عربي عند هذه النقطة بما سبق أن أشار إليه الحلاج، إذ يصبح "دين الحب" عند كليهما مفهوما شاملا لكل المعتقدات والعبادات التي تنشد الذات الإلهية العلية، ويصبح "الهوى" شريعة إنسانية جديدة،

1- فصوص الحكم، ص 110.
2 القرآن، سورة البقرة، الآية 115.
3- ديوان ابن عربي، ص 16.
4- سورة الجاثية، الآية 23.
5- سورة الجاثية، الآية 23.
6- حقيقة مذهب الاتحاديين أو وحدة الوجود، مجموع فتاوي، ج 2، ص 253.

ترتكز على ما يؤلف بين البشر، وتتجاوز كل ما من شأنه أن يفرق بينهم، "سواء صادف هذا الهوى الأمر المشروع أو لم يصادف".

III- نقد ابن تيمية لمذهب وحدة الأديان ورفض الآخر

من الواضح أن نظرية وحدة الأديان كما شرحنا بعض مبادئها أعلاه، منافية لتعاليم التدين السّني كما ضبطتها المنظومة الفقهية الإسلامية منذ عهد مبكر، والتي تلخص الإسلام في شرطين ضروريين، لا يصح دونهما، وهما الإيمان بأن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ثم الامتثال في العبادات والأعمال لما أمر به الشرع، والانتهاء عما نهى عنه، مع التأكيد على أن الإسلام نسخ الشرائع السابقة وختم كل الأديان، فحلال محمد هو "الحلال" إلى يوم البعث، وحرامه هو "الحرام" إلى يوم البعث، لأنه قد استقر أنّ "الدين عند الله الإسلام".[1]

ولهذا السبب لم يكن من الممكن أن يقبل الفقهاء كلام ابن عربي وأتباعه في نظرية وحدة الوجود عموما ولا ما تفرع عنها من آراء سيما مذهبهم في وحدة الأديان. ونحن نتخذ اليوم مثالا على هذه الردود التي أنجزها الفقهاء لنقد عقائد أهل الوحدة الصوفية، شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية (ت 728هـ)، الذي يعد من أشهر معارضي المذهب الصوفي الذي عرفته شعوب العالم الإسلامي في القرن السابع، سيما باتجاهه الوحدوي والطرقي. ويجب أن نشير إلى أن ابن تيمية هو من أبرز شيوخ المذهب الحنبلي، وهو أكثر المذاهب الفقهية ارتباطا بحرفية النص، وأشدها رفضا لكل الأفكار التي لا تجد ما يؤديها فيما أثر عن السلف.

تكفير ابن تيمية للقائلين بوحدة الأديان

يرفض ابن تيمية عقيدة وحدة الأديان جملة وتفصيلا. وفي كل ما صنفه للردّ على ابن عربي وأتباعه من القائلين بالوحدة الوجودية، نراه ينعتهم بالملاحدة،[2] والمباحية والمعطلة، بل "هم شرّ من المباحية الملاحدة الذين يجرون مع محض القدر ويعطلون الأمر والنهي والثواب والعقاب"، "لأن هؤلاء عطلوا أيضا الصانع والرسالة والحقائق كلها".[3] وهم "شر من الجهمية الذين كفرهم السلف والأئمة لما قالوا أنه في كل مكان. وهؤلاء قالوا أنه وجود كل مكان، ما عندهم موجودان."[4] بل أنه لو قيل في مقالتهم أنها كفر لم يفهم هذا اللفظ حالها، فإن الكفر تحته أنواع متفاوتة، وكفر كل كافر جزء من كفرهم.

1- القرآن، سورة آل عمران، الآية 19.

2- انظر مثلا رسالته، حقيقة مذهب الاتحاديين أو وحدة الوجود، مجموع فتاوي، ج 2، ص 134-285.

3- مجموع فتاوي، ج 2، ص 98-100.

4- مجموع فتاوي، ج 2، ص 127.

وهو يحكم على جملة كلام الشيخ الأكبر بأنه "شرك وجحود وتعطيل في غاية التناقض والسفسطة، وأنه خلاف دين المرسلين كلهم والملل كلها، وخلاف دين المشركين أيضا".[1]

ولهذا شدد ابن تيمية في الإنكار على كل من مال إلى هؤلاء واعتبره "إما زنديقا منافقا وإما جاهلا ضالا". فالمتصوفة القائلون بالوحدة الوجودية حسب ابن تيمية مرتدون عن الإسلام والمرتد عنده شر من الكافر الأصلي.[2] لذلك أعلن في مواقع كثيرة من ردوده أنه "يجب قتل هؤلاء الاتحادية، ويجب عقوبة كل من انتسب إليهم أو ذب عنهم أو أخذ يعتذر لهم بأن هذا الكلام لا يدرى ما هو"، معتبرا "أن القيام على هؤلاء من أعظم الواجبات لأنهم أفسدوا العقول والأديان على خلق من المشايخ والعلماء والملوك والأمراء وهم يسعون في الأرض فسادا".[3]

إبطال حجج ابن عربي واتهامه بتحريف الكلم عن مواضعه

ركز ابن تيمية ردّه على مذهب وحدة الأديان على ردّ أدلة ابن عربي لأنه مدرك تماما أن نقد العقيدة لا يكون ألا عبر دحض حجج خصومه وتفنيدها وهو ما يعني عودته إلى نفس الآيات القرآنية التي انطلق منها ابن عربي، لتصويب تفسيرها، ولتأكيد بطلان تأويله. وهو يتهمه بالإلحاد في آيات الله وتحريف الكلم عن مواضعه"،[4] إذ يقتطع من الآية ما يراه مناسبا لمذهبه ويهمل ما يراه مخالفا.

وفي هذا الصدد نذكر رفضه لتفسير ابن عربي لقوله: "وقضى ربّك ألا تعبدوا إلا إياه". يقول ابن تيمية: "إن "قضى" هنا ليست بمعنى القدر والتكوين بإجماع المسلمين حتى يقال "ما قدر الله شيئا إلا وقع"، وإنما هي بمعنى أمر، وما أمر الله به قد يكون وقد لا يكون، فتدبر هذا التحريف".[5] ويورد ابن تيمية الأدلة التي تثبت أن "قضى" وردت في هذا السياق بمعنى "أمر" لا بمعنى "قدّر" كما ذهب إليه ابن عربي. فمن هذه الأدلة أن بعض السلف "كانوا يقرؤون: (ووصى ربك ألا تعبدوا إلا إياه)، ذكره ثعلب عن ابن عباس وذكروا أنها كذلك في بعض المصاحف. ولهذا قال في سياق الكلام: (وبالوالدين إحسانا) وساق أمره ووصاياه".[6] ومنها خاصة المعنى العام الذي دارت حوله الآية المذكورة، والذي يؤكد معنى الأمر، لذلك يتم ابن تيمية الآية إلى قوله "ذلك مما أوحى إليك ربّك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلها آخر فتلقى في جهنم ملوما مدحورا".[7] "فقد ختم الله

---

[1]- حقيقة مذهب الاتحاديين أو وحدة الوجود، مجموع فتاوي، ج 2، ص 255.
[2]- حقيقة مذهب الاتحاديين أو وحدة الوجود، مجموع فتاوي، ج 2، ص 192-193.
[3]- مجموع فتاوي، ج 2، ص 131-132.
[4]- حقيقة مذهب الاتحاديين أو وحدة الوجود، مجموع فتاوي، ج 2، ص 263.
[5]- حقيقة مذهب الاتحاديين أو وحدة الوجود، مجموع فتاوي، ج 2، ص 263.
[6]- حقيقة مذهب الاتحاديين أو وحدة الوجود، مجموع فتاوي، ج 2، ص 264.
[7]- سورة الإسراء، الآية 39.

الكلام في الآية المذكورة بمثل ما فتحه به من أمره بالتوحيد ونهيه عن الشرك، ليس هو إخبارا أنه ما عُبد أحد إلا الله وإن الله قدر ذلك وكونه".[1]

ويواصل ابن تيمية إبطال حجج ابن عربي، من ذلك اعتماده على تسمية المشركين معبوداتهم آلهة ليؤكد أنهم إنما كانوا يعبدون الله المتجلي فيها. يقول ابن تيمية: "كيف يحتج بقول مشركين لا حجة لهم وقد أبطل الله قولهم؟"[2] ويضيف "قد أخبر الله أن الأسماء التي سماها المشركون أسماء ابتدعوها لا حقيقة لها، فهم إنما يعبدون أسماء لا مسميات لها، لأنه ليس في المسمّى من الإلوهية ولا العزة ولا التقدير شيء، ولم ينزل الله سلطانا بهذه الأسماء".[3] ويحتج لرده بعدد الآيات التي تثبت هذا المعنى من مثل قوله في مخاطبته للمشركين من قوم هود : *أتجادلونني في أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم*؟". وقوله في سورة يوسف: "*يا صاحبي السجن أأرباب متفرقون خيرٌ أم الله الواحد القهار؟ ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان*".[4]

رفض ابن تيمية لعقيدة وحدة الأديان:

يعود ابن تيمية بدرجة أولى وأساسية إلى القرآن ثم إلى السنة لردّ كلام ابن عربي في وحدة الأديان ولاسيما قوله أنه ما عبد غير الله وأنه ليس في الوجود شيء يجعل ألها آخر، لأنه ثبت أن الرسل "جعلوا ما عبده المشركون غير الله، وجعلوا عابده عابدا لغير الله"،[5] وأنهم "دعوا الخلق إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وهذا هو دين الله الذي أنزل به كتبه وأرسل به رسله وهو الإسلام العام الذي لا يقبل الله من الأولين والآخرين غيره ولا يغفر لمن تركه بعد بلاغ الرسالة، وهو الفارق بين أهل الجنة والنار".[6] فإذا كان أي شيء عبد هو نفس الإله ليس آخر غيره، فلم "أخبر الله أنه يوحي إلى كل رسول بنفي الإلوهية عما سواه وإثباتها له وحده"؟[7] ولم دعا الرسول المشركين إلى ترك ما يعبده آباؤهم؟ فلو كانوا يعبدون الله وحده، لكان الرسول أقرهم على كلّ شيء كانوا يعبدونه.[8] وأي معنى يظل لقوله: "*واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون*"،[9] وقوله: "*وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون*"،[10] وقوله: "*إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء*".[11]

---

[1]- حقيقة مذهب الاتحاديين أو وحدة الوجود، مجموع فتاوي، ج 2، ص 264.
[2]- حقيقة مذهب الاتحاديين أو وحدة الوجود، مجموع فتاوي، ج 2، ص 258.
[3]- حقيقة مذهب الاتحاديين أو وحدة الوجود، مجموع فتاوي، ج 2، ص 259.
[4]- القرآن، سورة يوسف، الآيتين 39-40.
[5]- حقيقة مذهب الاتحاديين أو وحدة الوجود، مجموع فتاوي، ج 2، ص 255.
[6]- حقيقة مذهب الاتحاديين أو وحدة الوجود، مجموع فتاوي، ج 2، ص 255-256.
[7]- حقيقة مذهب الاتحاديين أو وحدة الوجود، مجموع فتاوي، ج 2، ص 256.
[8] - "قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد"، سورة الكافرون، الآيات 1-3.
[9]- سورة الزخرف، الآية 45.
[10]- سورة الأن سورة الجاثية، الآية 23. بياء، الآية 25.
[11]- سورة النساء، الآية 48.

ويحتج ابن تيمية بشكل خاص بما أخبرنا به القرآن عن إبراهيم الخليل ومجادلته لأبيه وقومه، من مثل قوله: "*يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا*"[1] وقوله: "*إني بريء مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفا*"،[2] وقوله: "*إني براء منكم ومما تعبدون من دون الله*".[3] وانطلاقا من هذه الآيات يواصل ابن تيمية تساؤلاته الاستنكارية: "فإذا كان المشركون يعبدون الله وحده كما تزعمه الملاحدة، فلم نهى إبراهيم أباه وأنكر عليه أن يعبد الأوثان التي لا تسمع ولا تبصر ولا تغني عنه شيئا. وعلى زعم هؤلاء الملحدين أنه ما عُبد غير الله في كل معبود، فإنّ الله هو الذي لا يسمع ولا يبصر ولا يغني غنه شيئا، وهو الذي نهاه عن عبادته وهو الذي أمره بعبادته. وإذا كان الذي أشركوه هو عين الحق ليس غيره، فإن إبراهيم قد تبرأ عندهم من الحق الذي ظهر في آلهتهم، وكذلك كفره بآلهتهم ومعاداته لهم، كفر بالحق عندهم ومعاداة له".[4]

ورغم أن ابن تيمية ينشئ ردّه مستندا بدرجة أولى على دعائم من القرآن والسنة، إلا أننا نراه في بعض الأحيان القليلة يحاول نقد هذه الأفكار من الدّاخل، متوسلا بالبرهان العقلي لتفنيدها وتأكيد مناقضتها للحقيقة. فهو يعرض مذهب أهل الوحدة بقوله: "وهؤلاء جعلوا الحقائق بحسب ما يُكشف للإنسان ولم يجعلوا للحقائق في أنفسها حقا تتحقق به. وهذا عندهم يفيده الإطلاق: ألا تقف مع معتقد بل تعتقد جميع ما اعتقده الناس، فإن كانت أقوالا متناقضة فإن الوجود يسع هذا كله، ووحدة الوجود تسع هذا كله".[5] ثم يردّ عليه قائلا: "معلوم أن الاعتقادات المتناقضة لا تكون في الخارج لكن في نفس المعتقد. ومعلوم أن النقيضين لا يجتمعان في الخارج لكن يمكن اعتقاد اجتماعهما. معلوم أن الوجود إنما يسع وجود هذه الاعتقادات لا يسع تحقق المعتقدات في أنفسها، وهذا مما لا نزاع فيه بين العقلاء فإنّ الاعتقاد الباطل هو موجود داخل في الوجود لكن هذا لا يقتضي لأن يكون حقا وصدقا".[6]

IV- بين التمسك بحرفية النص والوفاء لروح الشريعة

يبدو ابن عربي ضمن شرحه لنظريته في وحدة الأديان واعيا كل الوعي أن الدين مثل دائما عاملا من عوامل التفرقة بين الشعوب، وهو يخشى هذه التفرقة التي تبدو منافية لروح كل الديانات، ويدرك خطورتها لأنها قد تقود المجموعة الإنسانية إلى نزاعات ومعارك يشفق منها على البشر، (احتجاجه بقصة موسى وهارون الذي أشفق أن يقال له: كنت سببا في التفريق بين بني إسرائيل). وهو لا

[1]- سورة مريم، الآية 42.
[2]- سورة الأنعام، الآية 79.
[3]- سورة الزخرف، الآية 26.
[4]- حقيقة مذهب الاتحاديين أو وحدة الوجود، مجموع فتاوي، ج 2، ص 25-261
[5]- مجموع فتاوي، ج 2، ص 98-100.
[6]- مجموع فتاوي، ج 2، ص 98-100.

يجد أي دافع موضوعي يبرر معاداة الإنسان بسبب الاختلاف الديني، ويرجع عوامل هذا الرفض إلى نوع من التعصب السلبي.

فبالرغم من أن الإنسان عرف، عبر تاريخه الطويل ديانات متعددة ومختلفة، فإن مصدر كل هذه الديانات يضل واحدا، والهدف منها يضل واحدا، وبالتالي فالدين، مهما تباينت أشكاله واختلفت شعائره واحد. وهذا هو معنى وحدة الأديان الذي يسوي بمقتضاه ابن عربي بين مختلف الديانات، وثنية كانت أو سماوية، ويعتبرها صحيحة كلها مادام مطلوبها واحدا.

هذا الموقف يطرح لدينا سؤالا هاما: هل أن ابن عربي يسوي بين الإسلام والديانات التوحيدية وبين الإشراك؟ وهل يؤيد الوثنية التي كانت سائدة بين العرب قبل مجيء الإسلام؟

في الواقع يفصل ابن عربي ضمن كلامه عن مذهب وحدة الأديان بين موقفين متباينين من مسالة الإشراك والتدين بغير دين الإسلام. الموقف الأول هو موقف أهل الظاهر الذين ينكرون كل دين غير الإسلام ويكفرون أصحابه، لأن "الدين عند الله الإسلام".[1] ويقابله موقف العارفين المتكلمين، الذي يقوم على ثنائية المضمر والمعلن. أما الموقف المضمر، فيتمثل في عدم تكفير هؤلاء لأنهم لا يعبدون في الحقيقة غير الله. وأما الموقف المعلن فيتمثل في تخطئة هؤلاء، أولا: لأنهم يدينون "بدين مخصوص"، إذ يخصصون بالعبادة أحد مظاهر الحق، والحق ظاهر في الوجود كله. وثانيا: لأنهم خرجوا عن حكم رسول الوقت الواجب عليه إتباعه، لأن كل ما يتهيأ للإنسان من معرفة، لا يكون في الحقيقة، إلا إرثا عن نبي ذلك الزمان، مصدر العلم الباطن. فابن عربي يخطئ إذن المشركين لأنهم عبدوا الله في وجه من وجوهه وأهملوا سواه، وهو يخطئ كل من دان بغير الإسلام، لمخالفتهم لرسول الوقت، رغم إدراكه الخفي بأن المشركين ما عبدوا غير الله. ونحن نورد هنا هذه الفقرة من كلام ابن عربي مع تغيير صياغتها توضيحا لما تشتمل عليه من أفكار. يقول في فص كلمة هارونية: "وأما العارفون، مع علمهم بأن المشركين ما عبدوا من تلك الصور أعيانها وإنما عبدوا الله فيها بحكم سلطان التجلي، الذي عرفوه منهم، وجهله المنكر الذي لا علم له بما يتجلى، وستره العارف المكمل من نبي أو رسول، أو وارث عنهم، فيظهرون بصورة الإنكار لما عُبد من الصور، لأن مرتبتهم في العلم تعطيهم أن يكونوا بحكم الوقت، لحكم الرسول الذي آمنوا به عليهم، الذي به سمّوا مؤمنين. فهم عباد الوقت، فأمرهم بالانتزاح من تلك الصور لمّا انتزح عنها رسول الوقت إتباعا للرسول، طمعا في محبة الله إياهم بقوله "قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله". فدعا إلى إله يعلم من حيث الجملة، ولا يشهد، ولا تدركه الأبصار، بل هو يدرك الأبصار للطفه وسريانه في أعيان

[1]- القرآن، سورة آل عمران، الآية 19. ويجب أن نشير إلى تمييز الفقهاء على المستويين النظري والعملي بين الكافرين وأهل الكتاب.